إنك لا تستطيع أن تضع حداً للحب

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« لقد أحبها ، ولكن هذا الحب قد أدى إلى ذلك العذاب الأليم ، فهل هو ملوم ؟ »

كنا فى أواخر الصيف وكنت فى الثامنة عشرة من عمرى عند ما قابلت هارى برنسون فى أحد المقاهى وشربنا معاً فنجانين من القهوة . وكان العام مجدباً شديد الغبار ، ضربت فيه المجاعة أطنابها فى هذه المنطقة الزراعية من روسيا حيث كنت أعيش مع أبى ، منذ ماتت أمى فى العام السابق ، على مزرعتنا المرهونة . وكنا فى حيرة لا ندرى كيف نقضى الشتاء إذا لم نضطر للاستجداء . ولم يكن هناك من عمل فى المنطقة يستطيع الإنسان أن يلتحق به ، وكان الضيق مستولياً على نفسى ولعل آثاره قد بدت على وجهى وقد لحظها هذا الشاب عند ما دخل من باب القهوة متمايلاً . وكان أسمر الوجه نحيل الجسم تدل ملابسه على أنها قديمة الاستعمال . ونظر الفتى إلىّ بعينيه الزرقاوين البراقتين نظرة الفاحص وقال :

— مرحى !

فهممت جواباً ومضيت فى شرب القهوة ناظراً إلى الصور الملصقة فوق المرآة ، ومضى الفتى يقول فى لهجة ودية مرحة :

— ألا تفكر فى رحلة إلى الجنوب بسيارتك فى هذا الأسبوع ؟ إنى مستعد لأن أدفع ثمن البنزين . فإن أمامى هناك عملاً فى جمع الفواكه وأود لو أستطيع الوصول إليه ، فهل عندك سيارة ؟

نعم . إن عندى بقايا سيارة ...

واستمر الفتى يقول إنه قد يجد لى أنا أيضاً عملاً إذا وافقت على الذهاب معه . فلم أهتم بكلامه أول الأمر ، ولكنه لم يكد يمضى فى الحديث حتى انتهى بى الأمر إلى القبول . ولِمَ لا أذهب معه ؟ وليس لى من عمل فى منطقتنا بعد أن تلف المحصول ، فلا مخزون تجب العناية به وليس عندنا غير بقرة واحدة هى التى نحلبها ونعيش عليها . فإذا ذهبت معه استطعت أن أحصل على شىء من المال وهيأت لى فوق ذلك فرصة ناحية أخرى من نواحى العالم ، وقد يكون هذا الفرض خيراً من الأول

فقلت له آخر الأمر وقد صافحته معاهداً :

سأوصلك بسيارتى

وأخبرنى الفتى أن اسمه « هارى برنسون » وأجبته بأن اسمى « توم ريتشاردز » . واتفقنا على أن نبدأ رحلتنا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الثانى ، لتكون رحلتنا كلها نهاراً اتقاء لحوادث الطريق ولنصل مبكرين فنستطيع اختيار عمل فى بساتين الخوخ ...

ومن هنا عرفت « لندا هوارد » ، وكانت هى أيضاً تشتغل بجمع الفاكهة . وكان هارى قد قابلها فى السنة السابقة ، وهو الذى قدمنى لها .

وكانت واقفة فوق سلم تضع الخوخ الذهبى اللون فى سلة معها ، وكانت عيناها لطيفتين باهتتى الزرقة يظللهما غشاء من الحزن ، وكانت أكبر منى قليلاً فى السن ولكنى رأيتها أجمل شىء وقعت عليه عينى منذ وجدت فى هذه الحياة

ولما طلبت منها لأول مرة أن تخرج معى ترددت ثم قالت :

— أنا ... لعلك ياتوم لا تشغل نفسك بأمرى إذا أنا أخبرتك أننى أم طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها

والحق أننى أجفلت عند سماع هذه الكلمات ، فقد كان يبدو عليها أنها صغيرة جداً ، ولكن حتى على بأنها كانت متزوجة من قبل لم يخفف من رغبتى فى ملازمتها

وقلت لها إنها لتبدو أصغر من أن تكون زوجة قبل ثلاث سنوات، فترغرعت عيناها بالدموع وقالت:

— لقد كنت صغيرة جداً عند ما تزوجت ، ولم يوافق أحد على زواجنا ولكننا كنا عنيدين فتزوجنا بعيداً عن أهلنا . ولم يكن لدينا مال كثير ولكننا كنا سعيدين بحبنا . ثم ولدت « نانسى » وعلى أثر ولادتها مباشرة قتل زوجى فى حادث سيارة فكان كل إنسان يقول لى : « ألم نقل لك » ... فإن الحوادث من الأمور التى كانوا يتوقعونها من وراء زواجى على غير إرادتهم ، وهذا ما لم أستطع أن أفهم له معنى . لذلك أخذت نانسى وتركت القوم وكلامهم . ومن ذلك الحين وأنا أحصل على رزقنا بعملى

وكانت ليندا صغيرة الجسم تبدو عليها مظاهر الأنفة والاعتزاز بالكرامة ، وكانت مرتسمة على جبينها آثار ما لقيت فى الحياة من متاعب ، وهى مع ذلك لم تطلب العطف من أحد ولم تكن لترغب فى ذلك العطف

كانت الفتاة شريفة صادقة فى سلوكها معى ، فقد أخبرتنى منذ اللحظة الأولى بأمر ابنتها ولقد أحببتها من أجل ذلك . أحببتها حباً لم يكن ليخطر لى على بال أن أشعر فى حياتى بمثله لإنسان . ونسيت أننى لم أكن إلا مزارعاً فقيراً ، ليس لى غير مزرعة مرهونة وسيارة محطمة ، وأننى على بعد أميال عديدة من موطنى ... وقد أصبحت لا أشعر بشىء إلا أننى أحبها وأود أن أرعاها وأعنى بأمرها فنظرت إلى يدى الكبيرتين اللتين يخيل إلىّ أنهما قادرتان على أن تسحقا الصخر ، وقلت مندفعاً فى غير تفكير :

« أود أن تسمحى لى ياليندا بأن أعنى بأمرك فأنا كبير الجسم قوى البنية قادر على العمل . وأنا أحبك ، فهلا تزوجت منى ؟ وأنا أعدك بأن أكون أباً لابنتك خيّراً »

أجنون هذا ؟ نعم . ولكنه جنون حلو لذيذ ! ولقد حاولت الفتاة أن تحاجنى وأن تقنعنى بأننى لا أقدر المسؤولية التى أحملها نفسى . وقالت إنها تعرف أننى صغير غير مجرب ، ولكننى لم أمكنها من الاستمرار فى الإدلاء بما لديها من حجج تحاول إقناعى بها باندفاعى فيما أنا مقدم عليه من غير تفكير ولم أستطع إلا أن أضمها مرة بين ساعدى وأن أقبلها . ولقد آمنت بأن ليس فى الوجود قوة تستطيع أن تزعزع عزمى على العناية بأمرها وحمايتها

وقالت ليندا :

— لا أستطيع الآن أن أعدك بالقبول يا توم

لأنى أريد أولاً أن ترى ابنتي نانسى .

وفى ذلك المساء أخذتنى إلى الغرفة التى تعيش فيها ، وكانت صاحبة البيت تعنى بأمر الطفلة الصغيرة عندما تكون أمها متغيبة فى عملها ، وكانت ليندا تساعد فى أعمال البيت مقابل الأجر الإضافى للعناية بابنتها ، ولما وصلنا إلى الباب الخارجى رأيت طفلة صغيرة ذهبية الشعر فى ثوب أزرق تلعب فى الحديقة الأمامية ، وكانت تصنع فطائر من الطين وقد أعدت كثيراً منها وضعتها الواحدة بجانب الأخرى لتجف فلما سمعت وقع خطواتنا أسرعت إلينا جارية ، وألقت بنفسها بين ساعدى أمها ، وكانت أشبه ما تكون بها ، ولكنها عندما رفعت عينيها ناظرة إلى وجدت لونهما أسود.

وشعرت كأن طعنة قد أصابت قلبي ، فقد ذكرت أنها ابنة رجل آخر ، رجل أسود العينين ، قد ضم ليندا بين ساعديه ، وقبلها ، وكاشفها بحبه ، فاستسلمت له . وما من شك فى أنها قد أحبته وإلا لما تزوجت منه أبداً ، فقد عرفت ليندا معرفة جيدة من هذه الناحية ... وفى هذه اللحظة القصيرة تولد بغض نانسى الصغيرة فى قلبي ، ولم يكن الأمر أن حبي لليندا قد ضعف ... ولكننى كرهت طفلتها ! لقد نفست عليها القبلات التى كانت تغمرها بها ليندا حبيبتى ، وإنك لتشعر من عطف هذه المرأة الصغيرة على ابنتها أنها تتخيل أن الشمس قد أشرقت ثم تجسمت فى شخص هذه الابنة الصغيرة .

وأشارت الطفلة بأصابعها الملوثة بالطين إلى الفطائر المصفقة على الأرض وقالت لأمها :

— أنظرى يا أمى ، إنى أعمل لك فطائر الحب طوال النهار

فضحكت ليندا وقالت :

— يا لك من بطة غالية ، ولو أننا استطعنا أن نأكل هذه الفطائر لكان لنا من عملك مؤونة وافرة ...

وتعشيت تلك الليلة مع ليندا ونانسى ، ولم تتردد نانسى فى إبداء حبها لى ، وقد أصرت على أن أطعمها بملعقتها الصغيرة . ولقد صعب علىّ أن أثبت يدى فلا ترتجف تأثراً ، وأن أخفى ما لا بد أن يكون قد بدا على وجهى وفى صوتى من عوامل النيرة . ولكننى بذلت جهداً جباراً فى تملك شعورى ، وقد رجوت فى نفسى أننى ربما استطعت إذا قبلت « ليندا » الزواج منى أن أحملها على أن تعهد بالطفلة إلى بعض أقاربها ، وخوفاً من أن تصبح نانسى حائلاً بيننا ألححت على ليندا فى أن تتزوج منى فى التو . فقالت آخر الأمر إنها تقبل ما أطلب منها إذا رضيت أنا أن أسمح لها بالاستمرار فى عملها الذى تكسب منها رزقها وقالت لى :

— إننا بعد أن ننتهى من هنا نستطيع أن نذهب إلى بترزدورب وفى مقدورنا هناك أن نقتصد وأن نبتاع بثمن رخيص ما نحتاج إليه من فاكهة وخضر . كذلك نستطيع أن نحصل هناك على مزرعة صغيرة وأن نعيش عيشة طيبة . وبيترزدورب مكان طيب بديع للإقامة

فقلت :

— أنا يا حبيبتى لا أريد لك أن تعملى بيدك ، فإننى أستطيع أن أعمل بدلاً منك وأن أوفر الحياة الطيبة لنا جميعاً

ولكنها كانت تريد أن تشتغل بيدها فلم يكن بد من أن أسلم لها بما أرادت ، وهكذا أصبحت

أستخلصها لنفسى النهار كله ، فقد كنا نقضى اليوم فى جمع الفاكهة من البستان الكبير جنباً إلى جنب نختلس القبلات من لحظة إلى أخرى ونحن متسلقان أغصان الشجر

وذهب هارى فى الحال إلى بستان آخر ، وكان كثير التجول والارتحال فلم أره قط بعد ذلك ، حتى لم أجد الفرصة التى أشكر له فيها ما هيأ لى من أسباب السعادة بإحضارى إلى هذا المكان الذى وجدت فيه المرأة التى أحببت والتى رفعت على الحياة

وأوشكت السنة أن تنتهى وكنا فى ختام موسم جمع الفاكهة ، وكان بعضها لا يزال عالقاً فى أعلى الشجر ، فبينما كانت ليندا متسلقة إحداها لقطف هذه الثمرات الأخيرة زلت قدمها وسقطت ، ولم يكن سقوطها على الحشائش اللينة التى لا خوف من السقوط عليها ، ولكن فوق جذع شجرة مقطوعة وكان الجذع بطبيعة الحال صلداً وقد نتأت منه أطراف حادة غير منتظمة تلقتها كأنها أصابع من الفولاذ ، فحملتها خفيفة عرجاء وجريت بها مسرعاً إلى العربة حيث أرقدناها فى لطف على بعض الألحفة ولكنها لم تفتح عينيها ، وأرسلنا فى طلب الطبيب فجاء وفحصها وقال إنها لم تمت ولكنه يخشى أن يكون ظهرها قد كسر

وخيل إلىّ فى الأيام القليلة التى تلت هذا الحادث أنى أعيش تحت ضغط كابوس مخيف. لقد رقدت ليندا فى المستشفى ضعيفة صفراء لا تقدر على أكثر من الهمس، ولما قبضت على يدها الصغيرة بأصابعها الملوثة بالدم وأظافرها المكسورة كانت الكلمات الأولى التى همست بها إلىّ وأنا أنحنى عليها قولها : « توم ... حبيبى ... أرجوك أن تعنى بنانس وأن تحوطها بطيبتك وكرمك »

وكان الطبيب اسميث الذى يعالج ليندا طبيباً عاما غير مختص بفرع من الفروع ، وقد قال لى إنه إذا نجت امرأتى من الموت فليس هناك غير رجل واحد فى چوهانزبرج هو الذى قديستطيع أن ينجيها بأن تعيش حياتها عرجاء عاجزة ، ولكن الإقبال على هذا الرجل شديد وهو يلح قبل أن يتولى العلاج فى أن يثق مقدماً بأنه سينال أجر عمله . واسم الرجل ليونارد وقد أعطانى سميث عنوانه

وقد اضطررت فى اليوم الذى ذهبت فيه لمقابلة هذا الطبيب أن آخذ نانسى معى ، لأن صاحبة البيت كانت مشغولة . ولم يكن شعورى حيال الطفلة قد تغير فى كثير أو قليل . فقد كنت لا أزال أبغضها على الرغم من أنها كانت فتاة عزيزة ظريفة ، وكنت أنفس عليها مشاركتها لى فى حب ليندا، ذلك الحب الذى كنت أريده خالصاً لنفسى من دون الناس. ولقد كانت ليندا أخبرتنى بأن أقاربها فقراء لا يستطيعون أن يؤوا نانسى حتى إذا هى رغبت فى مفارقتها

وفيما أنا والطفلة جالسان فى غرفة الاستقبال الكبيرة بدار الطبيب الذائع الصيت درجت نانسى إلى الشرفة وشرعت تلتقط من أصص الأزهار قطعاً من الطين تبرمها بين أصابعها . وقد نظرت إلى بعينيها السوداوين نظرة جدية وهى تريني الفطائر الدقيقة التى صنعتها وزينتها بورق من أزهار الطبيب وقالت لى:

— فطائر الحب لأمى . . .

ولم يطاوعنى قلبى على إسكاتها بل لقد كنت فى الواقع غير متنبه لها ، فقد كنت كالرجل التائه ، لا أدرى من أين آتى بالمال الذى أدفع منه أجر عملية « ليندا »

وأخيراً حضر الخادم وأخبرنى أن الطبيب فى

انتظارى، وكان الطبيب كهلاً صغير اللحية أزرق العينين جامد النظرات فى حدة ، يداه صغيرتان صناعان

وقال الرجل بعد أن قدمت له نفسى :

نعم أنا أعلم أن اسميث هو الذى أرسلك إلى هنا فأنت الرجل الذى حدثنى عنه . فقد كسرت امرأتك ظهرها ، وإنى لأعتقد أنه يمكن شفاؤها من أن تعيش عرجاء ، ولكن يجب أن تفهم أنها تحتاج إلى عملية جراحية وإلى قضاء أسابيع وأشهراً فى المستشفى ، وهذا كله يتطلب المال

فقلت :

سأحصل على المال المطلوب يا دكتور بأية وسيلة كانت حتى ولو عصرته من الأرض الصلداء بيدى الماريتين . وكل ما أطلبه منك هو أن تهيئ لى فرصة كسب هذا المال ، وأنا مستعد لعمل كل شىء يمكننى من غايتى

وإنى لأعرف أن الرجل كاد يرفض رجائى ، إذ كان ذلك متجلياً فى عينيه ، عند ما فتح الباب فى بطء وأطل منه وجه نانس المشرق الجميل

واتجهت الطفلة مباشرة إلى الطبيب ومدت إليه يدها بالهدية التى أعدتها لأمها وقالت :

انظر ! هذه فطيرة لطيفة ، فطيرة حب لذيذة خذ ذقها !

وتظاهرت بأنها تعض الفطيرة بأسنانها الصغيرة البيضاء ومدت بها يدها للطبيب ، فبدت الرقة فى عينيه عند ما نظر إليها

فسألنى :

هذه ابنتك الصغيرة ؟

وشعرت بدافع فى نفسى أغرانى بأن أجيب « بنعم »

ولعله قد خيل إلى أن الطبيب متى عرف أن الطفلة ابنتى وأننى أحبها كان ذلك من العوامل التى تغريبى بأن أكد فى العمل لأقتصد أجر علاج أمها فضحك الرجل وحمل نانسى فأجلسها على ركبته ، وتظاهر بأنه يقضم قطعة من الفطيرة ، فقال وقد ضحكت نانسى من قوله ضحكة قلبية رقيقة :

مم . مم . مم ... إنها لذيذة

وكأن الرجل قد سحره جمال الطفلة فلم يستطع تحويل نظره عنها ، وعبث بأصابعه فى شعرها الذهبى الجميل وقال فى لطف :

إنى لأود أن تكون لى ابنة صغيرة مثلك !

ثم كأنه تذكر أنه قد نسينى ، فوقف بعد أن رفع الطفلة ووقفها على الأرض فى لطف وقال :

سأخبرك بما أنا صانع ... لقد أوصى لى بعض الناس منذ بضع سنوات بمنجم ذهب قد انتهى العمل فيه . فإذا أحببت أن تذهب إلى هناك وتحفر فيه ، فقد تحصل منه فى اليوم على بضع شلنات قد تكون كثيرة وقد تكون قليلة . وسنقتسم ما تستخرجه مناصفة، ومقابل ذلك أتولى علاج امرأتك، وهناك عشة قديمة ولكن يكون مقامك هنا شائقاً ويبدو لى أنك رجل لا تهاب العمل

فقلت :

أنا لا أهاب شيئاً يا دكتور ، وكل ما أطلبه هو الفرصة

وشددت على يده بيد لعلها كانت قاسية ساحقة، فقد رأيت عينيه تغمزان تألماً ، وسحب يده مسرعاً وقدم لى ورقة وهو يقول :

هذه هى التعليمات التى ترشدك إلى المكان، وهو واقع على مسافة حوالى مائة ميل من جوهانسبرج فى بقعة موحشة من بقاع الأرض

وهكذا أصبحت أنا ونانسى من المعدنين فى مناجم الذهب ، فلم يكن بد من أن أستصحبها معى إذ لم يكن فى وسعى أن أدفع أجر امرأة تقوم على العناية بها ، وقد طلبت منى ليندا أن آخذها معى إذ قالت فى صوتها الضعيف الرقيق :

إنها تحبك يا توم ولن تتعبك فى شىء فأحسن معاملتها .

ولقد بكيت وأنا أقبل ليندا مودعاً ، كذلك قبلتها نانسى ووعدتها بأن تصنع لها كثيراً من فطائر الحب ، وخرجت معى واثبة فى ملابسها القصيرة وحذائها المريح

وحملنا السيارة القديمة مؤونتنا ووضعت كرسى نانسى العالى — بعد أن نزعت أرجله — فوق السيارة ونانسى جالسة فيه مربوطة ، وتركنا الدار فى ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام الأخيرة من فصل الصيف ، وكانت نانسى تغنى وقد ملىء قلبى بالآمال الكبار فى شفاء حبيبتى ليندا، جلت مشيئة الله

لقد جهدت فى العمل أستخلص ذرات الذهب اللامعة من الصخور الصلدة القاسية ، ولم أحصل فى بضعة أيام على غير حبات قليلة لا يحس الإنسان حملها فى يده ، وبعد بضعة أيام أخر أصبح ما لدىّ كافياً لأن أشعر بثقلها فى كفى ، وكان يحدونى الأمل دائماً فى أن يصيب معولى جيباً من الأرض لم يفتح بعد أو عرقاً غاب عن أنظار المعدنين، وكانت نانسى تقضى يومها لعبة مرحة تصنع فطائر الحب من الطين وتزينها بقطع دقيقة من الأحجار أو التوت الجاف أو ورق الشجر وكانت فى الليل تصفف فوق المائدة القائمة وسط عشتنا الصغيرة ما أنجزت عمله فى أثناء النهار ، وبدأ شعورى نحو الطفلة يتغير إلى نوع من الحسد فقد كانت طفلة جريئة شجاعة لا تشكو أبداً من سقطة أو كدمة ولا تطلب قبلة ولا ملاطفة كما تطلب الأطفال ولا تسأل معروفاً ، ولكننى كنت أنفس عليها ما تأكل من الطعام شاعراً بأن ذخيرتنا منه ستنتهى قريباً وعندئذ نضطر إلى العودة

ثم بدأت الليالى يشتد بردها ، ولولا نانسى لأطلت إقامتى ، ولكنها لم تقو على احتمال الجو ، واقترب الوقت الذى كان لا بد أن نغادر فيه المنجم

وكنت قد جمعت كمية من تبر الذهب وضعتها فى كيس صغير أخفيته فى صندوق الطعام داخل العشة ، لأن جيوبى كانت من القدم بحيث لا تحتمل ثقله إذا أنا حملته فيها ، ولعل هذه الكمية تقدر بعشرين جنيهاً أو لعلها تبلغ مائة من الجنيهات ، فلم أكن لأعلم شيئاً عن سعر الذهب ، على أن هذا المحصول كان عملاً ابتدائياً على كل حال ، وقد اعتزمت أن أقضى يوماً آخر فى البحث ثم نعود

وفى هذا اليوم الأخير لم أكد أعثر على شىء فلما بدأ الظلام يهبط اتخذت الطريق القصيرة الموصلة إلى العشة ، حتى إذا بلغت نهايتها ودرت وراء الأغصان الملتوية سمعت صوتاً خشناً يقول :

— أين أبوك أيتها الطفلة الصغيرة ...

ثم سمعت صوت نانسى تجيب :

— لقد ذهب إلى المنجم ...

فقال الرجل :

— مم ... مم ... ذهب يحفر عن الذهب ... حسن فسننتظره ، وهل لديك شىء يؤكل ؟

فقالت الطفلة :

— فطير لذيذ .

ورأيت نانسى من وراء الأغصان تمد يدها بفطائرها الطين إلى أبشع رجلين رأيتهما فى حياتى ،

فقد كانت أمارات الشر والإجرام تطفح من وجهيهما

وفى هذه اللحظة رآنى أحدهما فانتزع مسدساً من بين طيات قميصه وصوبه نحوى وهو يقول :

— تقدم أيها المعدن وأرنى محصول يومك

فوقفت خاضعاً فى حين فتشا جميع جيوبى وكل طية من طيات ملابسى ولكنهما لم يجدا شيئاً

فدمدم الرجل :

— نتيجة سيئة . . وماذا علينا إذا فتشنا العشة ؟

وعلى حين فجأة رأيت كل شىء يحمر فى نظرى فضربته بقبضتى ، ثم شعرت بصدمة رصاصة فى جبهتى ، وأحسست بأيد كبيرة قوية تخنقنى من خلف ، ثم فقدت شعورى . فلما عاد إلىّ صوابى وجدت نانسى جالسة إلى جانبى تربت على شعرى بيديها الصغيرتين

وقالت :

— لقد ضربك هؤلاء الأشرار يا أبى ... إستيقظ يا أبى فقد ذهب هؤلاء الأشرار

فجلست مخبولاً ولكنى ما كدت أذكر ما حدث حتى اندفعت إلى داخل العشة . لقد فتشوها فقد كان صندوق الطعام مقلوباً وكان الكيس ملقى فى أحد الأركان فارغاً . لقد ضاع الذهب ، سرق ! وذهب شقائى كله سدى ! فأنا مضطر أن أعود خالى اليدين ولن يجرى الطبيب العملية لليندا وستبقى طوال حياتها عرجاء . فلعنت الحياة وسببت الوجود وانحطت نفسى آخر الأمر ، فاندفعت فى البكاء وقد انطرحت فوق الأرض ... حيث أقبلت نانسى علىّ وديعة تقدم لى ما صنعت فى يومها من فطائر لا تزال لينة غير جافة فصحت بها :

— ابعدى هذه الأشياء من هنا ... إنها قذرة لا تساوى شيئاً ... اطرحيها بعيداً ...

واختطفت الفطيرة من يدها وألقيتها بعيداً خارج العشة وسط الأغصان

ولا بد أن أكون قد نمت بعد ذلك نوماً عميقاً ، لأننى عند ما استيقظت كانت الشمس قد أشرقت وكنت أشعر بصداع شديد ، ولم يكن الجرح عميقاً ولكن شدة الصدمة هى التى أوقعتنى

على أننى لم أجد لنانسى أثراً فى أى مكان وذكرت الكلمات الخشنة التى خاطبتها بها فى المساء فصحت :

— نانسى ... أين أنت ؟

ولكننى لم أسمع وقع خطواتها الصغيرة ولم أسمع صوتها الرقيق يقول « ها أنا ذى »

ماذا تكون الحال لو أن حادثاً قد أصاب نانسى وماذا تظن بى ليندا إذ ذاك ؟ وكيف أعمل إذا كانت كلماتى الخشنة هى التى دفعتها إلى الهرب من وجهى فمضت فى الظلام بعيداً عن العشة وتاهت ؟

خرجت من العشة جارياً وسط الشمس المشرقة أصيح وأنادى مفتشاً بين الغصون المشتبكة ، وعلى حين فجأة شعرت بأن الثلج الذى تجمد حول قلبى قد ذاب وأدركت أننى أحب ابنة امرأتى ، فلم أحتمل فكرة أن يكون قد أصابها أى مكروه

لقد كان كل ما حدث نتيجة خطأى ، لقد كانت الطفلة تحاول أن ترضينى وترفه عنى بكل ما لديها من وسيلة

كانت الأغصان المحيطة بالعشة كثيفة ، وقد فتشتها تفتيشاً دقيقاً ، وأنا أفكر فى الأفاعى وفى صقيع الليلة الماضية ، وفى الأفاقين اللذين هاجمانى واللذين يحتمل أن يكونا قد ابتعدا جداً كما يحتمل أن يكونا قد عادا باحثين عن شىء آخر وتكون الطفلة قد وقعت فى أيديهما

ثم سمعت ما خيل إلى أنه صوت ملاك هابط من السماء، سمعت صوت نانسى موسيقياً حيياً، قادماً من وراء صخرة قائمة أمام العشة وهى تقول :

— ها أنا ذى يا أبى... لقد وجدت الفطيرة ... ولكنها مكسرة قطعاً !

ورأيت نانسى جالسة على الصخرة وإلى جانبها فطيرتها المكسورة وقد كشف مكان الكسر عن ذرات من الذهب البراق ... ذهبى الذى ظننت أنه قد سرق . . . فسألتها :

— ما هذا الذى فى فطيرتك يا نانسى ومن أين أحضرته ؟

فقالت الطفلة :

— من صندوق الطعام ... فإن دقيق القمح يصلح فطيرة لذيذة لأمى ...

قلت :

— دقيق القمح . . . ولو أنك لم تأخذيه من الكيس لأخذه هؤلاء اللصوص ! يالك من طفلة عزيزة يا نانسى !

وحملت الطفلة فقبلتها فى وجهها وفى يدها وفى كل ما وصلت إليه شفتاى ... ولم ألبث أن شعرت فى نفسى بإحساس غريب فاندفعت فى البكاء

فقالت الطفلة :

— لا تبك يا أبى ... فستصنع نانسى فطيرة أخرى ...

وقد ظنت الطفلة العزيزة أننى أبكى على الفطيرة المكسورة فقلت وأنا أبكى وأقبل الفتاة فى لهفة شديدة:

— إنك لن تصنعى أبداً يا عزيزتى فطيرة مثل هذه ... فهى فطيرة لم يصنع قط أحد مثلها . ومن المحتمل ألا يصنع أحد مثلها أبداً »

ولمت الفطيرة المكسورة على حالها لتعطيها نانسى بيدها للطبيب عند ما نصل إلى جوهانسبرج ، وقد أدركت أن هذه القصة ستكون برهاناً صادقاً على ما عملت

تستطيع ليندا حبيبتى الآن أن تمشى بمساعدتى، وكان الذهب الذى حصلت عليه مائة جنيه حملتها نانسى العزيزة إلى الدكتور فى فطيرتها المكسورة ... وكان الطبيب قد عمل العملية لليندا وهى الآن فى دور النقاهة ...

وقال لى الطبيب مبتسماً :

— لقد كنت واثقاً أنك لن تخل بكلمتك لى

وقد برقت عيناه وبللتهما الدموع بعد أن سمع قصتى وقال :

— إن أى إنسان ليبذل حياته من أجل زوجة وطفلة مثل هاتين

لقد أصبحت نانسى الآن شابة تخطت سن صنع فطائر الطين ، ولكنها تفكر دائماً فى أشياء تعملها لأمها ولى . وعندنا الآن مزرعتنا الصغيرة فى بيترزدورب ونحن جميعاً سعداء ، وكلما نظرت إلى نانسى ووجهها الجميل ولطفها عجبت كيف لم أحبها دائماً مثل ما أحبها الآن . إنى لأحبها كما أحب ابنتى الحقيقية .. فهى عندى أغلى من كل شىء .. أغلى من الذهب . . . ولما كنت اعترفت لليندا فى استحياء والدموع فى عينى أننى كنت فى وقت من الأوقات لا أحب نانسى كانت تطوقنى بساعديها وتقول :

— لقد عرفت ذلك وكنت أشعر به . ولعل ذلك الألم الذى شعرت به يا عزيزى والذى أحسسته أنت طوال الصيف الماضى هو الذى دفعك الآن إلى أن تحبها هذا الحب وإلى أن تدرك كم هى عزيزة عجيبة

نعم ربما كانت هذه هى الحقيقة . ولعل لنا فى الحياة خطة رسمتها يد واحد أعقل وأقدر منا جميعاً

عبد الحميد حمدى